Al Wasl University Journal - Issue (67) - December 2023
ISSN 2791-2949 (Online)

Manifestations of Tasting Poetry at Abd al-Malik bin Marwan

Dr. Fathelrahman Mohamed A hmed Algaaly - Qassim University - Saudi Arabia

https://doi.org/10.47798/awuj.2023.i67.04

Received: 11-11-2019

Accepted: 21-05-2020

Published: 01-12-2023

Corresponding Author:

ahedfath50@yahoo.com

Abstract

The study reviews the concept of the poetry appreciation, its appearance in the traditional Arab criticism, and the argumentation of some of the old Arab critics, such as Ibn Tbatiaba Alawi and Ibn Khaldun, with discussion to some of the modern critics views.

The poetry appreciation characterized by the difficulties of defining. Therefore, the concept of the poetry appreciation and the criticism of poetry were mutually defined as one concept on the poetry criticism practiced by Umayyad Caliph Abdul Malik bin Marwan, who is known for his practice and interest in poetry criticism.

The study used the descriptive method for analyzing poetry.

It also used the social method to know when the Arab people applied the poetry appreciation in their criticism, and to study the life of Abdul Malik and the surrounding environments.

It finds that Caliph Abdul Malik is prolific in criticism based on appreciation. However, many factors were influenced him such as his memorizing of the Qur'an, his knowledge of hadith, continues learning from the language and religious scholars, and his divan. In addition to that,, there is multiplicity of rich-poetry environments that he went through,, which had great roles in the social and political life at the time. Abdul Malik was bene
of the poets were supportive to him. He used it also in some messages to his assistant-ruler of Iraq Alhjaj bin Yusuf.

It recommends that the researchers may work more on the appreciation, conduct research in the phenomenon of writers, poets and critics of the caliphs, ministers or governors in the Arab Mashreq Empire and treat them like those of Andalusian literature.

Keywords: Poetry appreciation, ancient criticism, the Amorite era, Abd al-Malik ibn Marwan.

تجليات تذوق الشعر عند عبد الملك بن مروان

د. **فتح الرحمن محمّد أحمد الجعلي** – جامعة القصيم – المملكة العربية السعودية

ملخص

تناولت الدراسة مفهوم التذوق، وبدايات ظهوره في النقد العربي القديم، مستصحبة آراء بعض النقاد القدامى مثل: ابن طباطبا العلوي، وابن خلدون، وبعض النقاد المحدثين، وما لازم مفهومه من صعوبة في تحديده، ثم أسقطت مفهومات التذوق على نقد الشعر عند الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي عرف عنه اهتمامه بالشعر وممارسته للنقد، متبعةً المنهج الوصفي لدراسة النصوص، ومستعينة بالمنهج الاجتماعي لمعرفة العصور التي عرف فيها العرب تذوق الشعر في نقدهم، ولدراسة حياة عبد الملك والبيئات المحيطة به. وقد ظهر لي أن للخليفة عبد الملك عطاءً في النقد المعتمد على التذوق، هيأته له عوامل كثيرة: منها حفظ القرآن، ومعرفة الحديث النبوي، ومجالسته العلماء، ومجلسه خليفةً، ثمّ تعدد البيئات التي مر بها، فقد كانت غنية بالشعر الذي كان له أدوار كبيرة في الحياة الاجتماعية والسياسية آنذاك، وقد أفاد عبد الملك من ذائقته الأدبية تلك، في مؤانساته بمجالسه الخاصة، وكَسْب بعض الشعراء إلى جانبه، كما استعملها في رسائله الخاصة، مثل بعض رسائله لواليه على العراق الحجاج بن يوسف.

وقد أوصى الباحث بمزيد من البحث في موضوع التذوق وتقديم دراسات تيسر فهمه للدارسين، والبحث في ظاهرة الأدباء والشعراء والنقاد من الخلفاء والوزراء والولاة في المشرق العربي، تعالجها كتلك التي حظي بها الأدب الأندلسي.

الكلمات المفتاحية: تذوق، الشعر، النقد القديم، العصر الأموري، عبد الملك بن مروان.

© 2022 AWU Publishers/Alwasl University. All Rights Reserved.

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فالتذوق ظاهرة أدبية قديمة عرفها العرب ملازمة لمعرفتهم الأدب، لكون الأدب من الأشياء المؤثرة في النفس، المحركة للمشاعر، وهذا التأثير مدخله تذوق النصوص؛ فهو مبني على فهمها وإدراكها والإحساس بها، ولذلك قام عليه النقد العربي القديم، فالتذوق هو البداية للنقد التي منها يتطور لمراحله المختلفة، والنقد «في حقيقته تعبير عن موقف كلي متكامل في النظرة إلى الفن أو إلى الشعر خاصة يبدأ بالتذوق، أي القدرة على التعبير، ويعبر منها إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم»[1]، ولذلك حمل تاريخ الأدب العربي روايات كثيرة توضّح اعتماد التذوق في النقد العربي القديم وسيلةً رئيسة في الأحكام.

وهكذا، نجد كثيرا من الشواهد التي تبيّن وجود التذوق ظاهرةً ممارسةً عند العرب في عصورهم الأدبية الأولى، وقد استمر ذلك النهج حتى العصر الأموي فظلّ التذوق أساس النقد العربي إذ لم يتوسع العرب في النقد إلا في العصر العباسي، وهذا ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف؛ حيث يرى أنّ النقد عند العرب في العصرين الجاهلي والأموي كان يعتمد على الإحساس والذوق[2]، بيد أنّ تلك الشواهد على وضوحها لم تصل لتكييف فلسفي لظاهرة التذوق الأدبي بالقدر المتوقع، فقد تحدّث بعض الكتّاب فتناولوه من حيث المعنى اللغوي والمدلولات الأدبية والنقدية، واجتهدوا في إيجاد تعريف يوضّحه بما ييسر فهمه لدارسي الأدب، ولكن كثيرا منهم وقف عند نقطة الاعتراف بصعوبة الوصول لتعريف جامع مانع، حيث تباينت المفهومات حوله تبايناً واضحاً، بسبب اختلاف المصادر الأدبية والبيئات الثقافية، والرؤى التي يتم تناول الموضوع من

١- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦، ص١٤.
٢- شوقي ضيف، في النقد الأدبي الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط٨، ص٣٠.

خلالها، ولذلك لم يكن غريبا أن نجد الدكتور ماهر شعبان يقول: «ليس للأدب معيار موضوعي يحدد لنا مقدار ما به من جمال وجودة، وإنّما يرجع تقديره إلى تذوق من يدركه وإلى مقدار حساسيته به، لهذا فإنَ مقياس الأدب مقياس يختلف باختلاف الأفراد، ويختلف باختلاف المواقف، ولذا فقد طرحت العديد من التعريفات لمفهوم التذوق الأدبي، وقد تشعبت هذه التعريفات وتنوعت مساراتها تنوعا ملحوظا حتى أضحى من الصعوبة بمكان الوصول إلى تعريف جامع مانع للتذوق»[1]، وهذا الأمر دفع الباحث لدراسة التذوق الأدبي قاصداً اختيار أدقّ المفهومات له وأوضحها، وإضافة ما يمكن لها، من أجل الوصول إلى مفهوم واضح ييسر للباحثين استيعاب التذوق باختصار غير مخل، ثم النظر في تجلياته من خلال نقد الشعر عند الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي يعد من متذوقي الشعر، وله مواقف كثيرة في ذلك تشكّل مادة بحثية غنية، تجعله مستحقا الدراسة، فضلا عن أنّ ذلك مما يبيّن أنّ النقد الشعري لم يكن وظيفة يقوم بها بعض الناس، إنّما كان حركة شعبية يمارسها كثيرون من مختلف طبقات المجتمع لاسيما علية القوم من الخلفاء الذين يظن بهم الانشغال بشؤون الدولة عن الأدب، فصورة الخلفاء غالباً ما تعكس وهم في منبر الحاكم، فتغيب صور أخرى منها، صورة بعضهم أدباءً أو نقادا، وهي صور تعطي الأدب العربي درجة من التفاعلية التي تبيّن تواصل المجتمع العربي القديم بمختلف طبقاته، وهو أمر مطلوب ضمن دور الأدب في المجتمعات جدير بالإبراز.

إنّ دراسة التذوق عند أيّ إنسان تبيّن الأثر الذي يتركه النّص الشعري في نفسه وانعكاسات ذلك على بعض مواقفه، فكثيرا ما أسهم الشعر في تغيير الموقف لصالح الشاعر أو من يحمل عنه الشاعر حاجته، وهذا أيضا مما تهدف الدراسة إلى

١- ماهر شعبان عبد البارئ، التذوق الأدبي النظرية والتطبيق، مكتبة المتنبي، الدمام، ط ١، ١٤٣٣ هـ-٢٠١٣م، ص ٨٢.

النظر فيه من خلال نقد الخليفة عبد الملك بن مروان وتذوقه للشعر، ولذلك أتت هذه الدراسة متتبعة الظاهرة محللة لها، مظهرة كل متعلقاتها، مستعملة منهجا وصفيا، بالإضافة للمنهج الاجتماعي الذي يمكّن من دراسة الشخصية من خلال البيئات المحيطة بها.

إنّ أهمية هذه الدراسة تأتي من كونها تتخذ من موضوع التذوق مدخلا لدراسة الخليفة عبد الملك بن مروان وصلته بالشعر، فتجمع بين مناقشة التذوق ظاهرة نقدية، ودراسة عبد الملك بن مروان ناقدا متذوقا، وقد عنّت للباحث تساؤلات منها:

ما أثر البيئات الدينية والاجتماعية والثقافية في التكوين الأدبي للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وكيف تجلت صلته بتذوق الشعر؟ وما أثر التذوق فى مواقفه السياسية والاجتماعية؟

لقد افترض الباحث أنّ للبيئات المختلفة أثرا في التكوين الأدبي للخليفة عبد الملك، إذ أمدته تلك البيئات بما أسهم في تكوينه الأدبي وطور تذوقه للشعر، فقد كان ذا ذائقة شعرية أسهمت في نقده للشعر، وأثّرت في بعض مواقفه السياسية والاجتماعية.

وللوصول إلى أهداف الدراسة قسّمها الباحث إلى مباحث فجاءت على النحو الآتي:

المبحث الأول: عبد الملك بن مروان وصلته بالأدب.

المبحث الثاني: مفهوم التذوق الأدبي وقيمته النقدية.

المبحث الثالث: تذوق عبد الملك بن مروان للشعر.

المبحث الرابع: أثر التذوق الشعري في مواقفه السياسية والاجتماعية.

ثم خُتم البحث بخلاصة ما توصل إليه الباحث، وملحوظاته حول بعض ما وقف عليه، والنتائج التي وصل إليها، وما رآه من توصيات يمكن أن تسهم في إضافات مفيدة للموضوع، وأثبت مصادر ومراجع الدراسة.

المبحث الأوّل: عبد الملك بن مروان وصلته بالأدب

عبد الملك بن مروان بن الحكم أحد الخلفاء الأمويين الذين أثّروا في التاريخ العربي بما قدموا في خدمة الدولة الأموية، وهو من الشخصيات التي تستوقف الباحثين حيث تمثل مادة غنية في مجال السياسة والأدب، ولما له من موقع مميز بين الخلفاء الأمويين وتاريخ الدولة الأموية، فهو من الأسرة المروانية التي تعاقب عدد من أفرادها على حكم الدولة الأموية، فوالده مروان بن الحكم أحد الخلفاء الأمويين الذين كان لهم باع في قيادة دولة بني أمية، وأبناؤه ممن حملوا راية هذه الدولة في مرحلة من تاريخها، فهو واسطة العقد في الأسرة المروانية الأموية ذات الأثر الكبير في تاريخ الدولة الأموية ومن ثمّ في تاريخ الدول الإسلامية، فهو: «ثاني الخلفاء في دولة آل مروان، وخامس الخلفاء الأمويين، وتاسع الخلفاء منذ بدء تاريخ الخلافة»[١].

ولد عبد الملك بن مروان في سنة ست وعشرين للهجرة في بيت الملك والقيادة الأموي، ونشأ فيه، وتفتحت عيناه على الحكم والقيادة، ولذلك عهد إليه أبوه بالخلافة بعد أن رأى فيه دراية بشؤونها، ولكنّها لم تأته بيسر، «فلم تصح خلافته وبقي متقلباً على مصر والشام، ثم غلب على العراق وما ولاها إلى أن قتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فصحت خلافته من يومئذ واستوثق له الأمر»[٢]، فظل على رأس الدولة الأموية من ذاك العام وحتى وفاته في العام

١- عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سابق، ص١٩٥.
٢- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار المنهاج للنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م، ص ٣٥٤.

السادس والثمانين من الهجرة، وفي تلك الفترة التي قضاها خليفة أنجزت الدولة أعمالا عظيمة، مثل فتح الأندلس بجيش وإليه على المغرب موسى بن نصير[١]، والنقش على الدراهم والدنانير.[٢]

لقد شهد عهده فتناً؛ فقادت جيوشه حروبا كثيرة تشير لكثرة أعدائه ومعارضيه، وقد عرف بحزمه في الحروب وشدته على أعدائه، ولذلك استعان في هذه الظروف السياسية الصعبة، بقادة أقوياء يحسب بعضهم من الظلمة أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان من أهم ولاته الذين اعتمد عليهم في إرساء دعائم حكمه، الأمر الذي يحسب من عيوب عصر ولايته، فقد كان الحجاج باطشاً ظالماً حفظ له التاريخ مواقف كثيرة تؤكد ذلك.

لقد عرف عن عبد الملك بن مروان أنّه من الذين اهتموا بالعلم وتعلموا الفقه ويشهد لهم بباع طويل في مجاله، وله فضل في مجال الحديث كما اشتهر كذلك بالفصاحة، وقد عدّه الأصمعيّ ضمن أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل، فذكره وذكر الحجاج والشعبيَ وابن القريّة[٣]، ولكنّه رغم ما شُهد له بالفضل في القرآن والفقه والحديث، اختلف المؤرخون حول شخصيته فأوردوا عنها صفات ذميمة مثل: البخل والغدر، فالغدر لازمه بسبب قصة قتله عمرو بن سعيد بن العاص التي أوردها الطبريّ في تاريخه، حيث ذكر أنّ عبد الملك استدعى عمراً إلى قصره وغدر به وقتله[٤].

ولكنّ هذه القصة تقرأ من خلال الصراع الذي كان دائرا بين عمرو بن سعيد وعبد الملك وتنافسهما حول الملك وهذا ما أسهب فيه الطبريّ، وبينه قول عبد

١- ينظر:ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ج١٢، ط١، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م، ص ٣١١.
٢- ينظر: المرجع السابق، ص ٢٦٣.
٣- ينظر:السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٣٦٣.
٤- ينظر: الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ج٦، ص ١٤٤.

الملك لسعيد قبل موته: «والله لو أعلم أنك تبقي عليّ، إن أبقِ عليك وتصلح قريش لأطلقتك، ولكن ما اجتمع رجلان قطّ في بلدة على مثل ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه»[١].

صحيح أن هذه الواقعة تدلّ على غدر، ولكنّها تقرأ من خلال ما يحيط بها من ظروف، أهمها خوف عبد الملك من غدر عمر، وتهديده لسلطانه، وهذه الأشياء لا تسوغ الغدر، ولكنّها تحتّم علينا قراءة الموقف بصورته الكليّة، وتُوفِر مساحة لرؤيته مع غيره من المواقف، فقد عرف عن عبد الملك أنه أعطى محمد بن الحنفية ميثاق أمان ولم يغدر به، وأمر الحجاج ألا يتعرض لابن الحنفية، فلم يتعرض له[٢]، ولو كان الغدر صفة ملازمة له لغدر بابن الحنفية؛ فهو أبعد رحما من ابن العاص، وجذور خلاف قومه مع الدولة الأموية أعمق من خلاف ابن العاص الأموي.

أما البخل فلعبد الملك فيه تخريج حسن، إذ يعدّ ما يعاب عليه ضربا من الاقتصاد، يظهر ذلك في قصته مع كثيّر، فإنّه لما سأل عبد الملك كُثيّراً عن أفضل الشعر، أراد كثيّر أن يعرّض ببخل عبد الملك فقال: قول المقنّع:

إنّي أُحرّضُ أهلَ البخلِ كلّهمُ ... لوكان ينفعُ أهلَ البخلِ تحريضي

ما قلّ مالي إلّا زادني كرماً ... حتّى يكونَ برزقِ اللهِ تَعويضي

فالمالُ ينفعُ مَن لولا دراهمُهُ ... أمسى يقلّبُ فينا طرفَ مخفوضِ

لن تخرجَ البيضُ عفواً من أكفّهمُ ... الّا على وجعٍ منهم وتمريضِ

كأنّها مِن جلودِ الباخلينَ بها ... عند النّوائب تُحذى بالمقاريضِ

١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق مامون الصاغرجي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٤، ط٢، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ص ١٢٥.

فقال عبد الملك- وقد عرف ما أراد «الله أصدق من المقنّع»، ثم ذكر له قول الله تعالى: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا»[1]، فهذه القصة توضّح أنّه كان يعلم باتهامه بالبخل ويدفع بأنّ فعله اتزان في الإنفاق واقتصاد مأمور به في الدين، وهذا فهم مقبول مستند على مرجعية دينية، خاصة إذا ما قرئ هذا الدفع، مع بعض مواقفه الأخرى في العطاء، حيث عرف عنه أنّه أعطى كثيرين وأجزل لهم العطاء لا سيما الشعراء[2]. لقد سجل له التاريخ كذلك ما عيب عليه، حيث ذكر العسكري أنه أول من نهى الناس عن الكلام بحضرة السلطان، فقال: «أول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان وكان الناس قبله يراجعون الخليفة فيما يقول، ويعترضون عليه فيما يفعل، وأكثروا من ذلك على عثمان، ثم على معاوية، وكان يجرى في مجلسه من المنازعات والخصومات ما يجل وصفه، وكان يحتمل ذلك تحلماً وإبقاءً على ملكه، فلما صار الأمر إلى عبد الملك، أخذ الناس مأخذ ملوك الأعاجم، فنهاهم عن الكلام بحضرته، والمنازعة في مجلسه»[3]، ولكن الملاحظ أنّ ذلك وإن كان قد خرج عن المعروف سابقا لا يعد مذمة تقدح في شخصيته، فهو ضرب من النظام وتنظيم شؤون الحكم يخضع للتقديرات حسب الموقف المناسب، ولذلك أتبع أبو هلال العسكري الخبر بقوله: «قلنا ومن حق مجلس الملك، ألا ترفع فيه الأصوات، إذا كان ذلك زائدا في مهابة الملك وأبهته»[4].

لكنّ ما ذكر في سياق المحمود، لا ينفي أنّ له صفات ذميمة، فقد ذكر السيوطي في أوليات عبد الملك ما كان له من سبق أشياء حميدة وأخرى ذميمة، ثمّ قال: «تمت له عشرة أوائل منها خمسة مذمومة»[5]، بيد أن القارئ لسيرته يجد ملامح الخصال الكريمة أظهر من غيرها، وتستوقفه الأسس الثقافية والأخلاقية التي

١- أبوهلال العسكري، الأوائل، طنطا، ط١، ١٤٠٨هـ، الصفحات: ٢٥١، ٢٥٢.
٢- ينظر:ابن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ط١، ص٣٣١.
٣- أبوهلال العسكري، الأوائل، مرجع سابق، ص ٢٥١.
٤- المرجع السابق، الصفحة نفسها.
٥- السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص٣٦٠.

قامت عليها تلك الشخصية فيجد أثرها إيجابيا فيه، وربما كان لظروف انتقاله من بيئة العلم إلى بيئة الحكم أثر في بعض ما ظهر عنده من خصال تناقض ما عرف عنه بداية، وهذا ما ذهب إليه الدكتور محمّد سهيل طقوش حين قال: «ومن هذه الخلفية الدينية يجب أن نفهم سياسته بعد أن أضحى خليفة، وإن كانت ظروف الخلافة قد أجبرته في بعض الأحيان على التصرف تبعاً لما يمليه الموقف السياسي، الذي يبدو متناقضاً مع مثله الدينية، ومع ذلك فيجب ألا يبالغ في ذلك»[١].

فإذا كانت هذه هي الصورة العامّة لشخصيته، التي توضّح أنه رجل دولة ذو خلفية دينية، وله معرفة بعلوم كثيرة تلتقي جميعها فيما يغذي معرفته بالأدب، وإذا اصطحبنا ما يحيط بحياته من صراعات سياسية واختلافات مذهبية وتنافس حول السلطة، علمنا سبب الاختلاف حوله، ولذا فإنّ معرفة شخصيته ناقداً متذوقاً يجب ألا تغفل ذلك كله.

وبالنظر إلى الجانب الأدبي في شخصيته، يجد الباحث له عطاءً، أهلته له أشياء عدة كانت جزءاً من تكوينه الأدبي والثقافي، وأخرى شكلت المسرح الذي أظهر من خلاله قدراته واهتماماته الأدبية؛ نذكر منها الآتي:

أولا– القرآن الكريم: القرآن كلام الله الذي بهر العرب ببلاغته، وأعجزهم بآياته، فأصبح فيهم المورد الذي يأخذ منه كل ناشد فصاحة وبلاغة، والمنهل الذي شكّل مصدرا مهما من مصادر اللغة، ومرجعا يقاس عليه ويستشهد به، ولذلك فإنّ حفظه ومعرفته تزودان الناس باللغة وتسهمان في بنائهم الثقافي، وتنميان الذوق عند المستوعب لآياته، المدرك لبعدها الجمالي، وله – كذلك – أثر في الذائقة الأدبية لدى المتلقي، ذلك ما جعل عدو الإسلام الوليد بن المغيرة يقول عنه: «إنّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق

١– محمد سهيل طقوس، تاريخ الدولة الأموية، ط٧، ١٤٣٨ هـ – ٢٠١٠م، ص ١٦.

أسفله، وإنّه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»، فأظهر أثر تذوقه له بعبارة حسية: (إن لقوله الذي يقول حلاوة)، فكأنما ذاقه بلسانه وأحس حلاوته.

لقد حفظ عبد الملك القرآن صغيرا، واشتغل بعلومه فتأثر بذلك معرفةً وسلوكا، حتى شهد له بذلك من عرفه من علماء ذاك العصر مثل نافع مولى عبد الله بن عمر الذي قال عنه: «أدركت المدينة وما بها شاب أنسك، ولا أشد تشميرا، ولا أكثر صلاة، ولا أطلب للعلم، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان»[1]. وقد كان لمعرفته بالقرآن دور كبير في تنمية ذائقته الأدبية، إذ كان من السهل عليه استدعاء الشاهد القرآني للتعبير عن الموقف المناسب له، ومن ذلك جاء في قصته مع كثيّر التي ذكرناها سابقا حيث عرّض كثير ببخل عبد الملك شعرا، فأحسن عبد الملك الاحتجاج بالقرآن.

إن من الطبعي، أن يترك القرآن فيه أثرا، ويرقى بذائقته الأدبية.

ثانيا– السنة النبوية: هي المعين الثّاني للثقافة الإسلامية، وفيها تتجلى البلاغة النبوية، فقد حملت الفصاحة، وأغنت العقول بالحكمة، وزودت الألسن بجوامع الكلم، ولذلك قال الجاحظ عن حديث الرسول –صلى الله عليه وسلم –: «... ثمّ لم يسمع الناس بكلام قطُّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنىً، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم»[2]، وقد كان لعبد الملك بن مروان كسب في السنة النبوية حتى عد من رواة الحديث، وقد روى عن بريرة مولاة عائشة حينما كان بالمدينة قبل أن يتولى الخلافة، وقد ذكر أنها كانت تقول له: «يا عبد الملك إنّي لأرى فيك خصالا، وإنّك لخليق أنّ تولّى أمر هذه الأمة، فإن وليت فاحذر الدماء، فإنّي سمعت رسول الله –صلى الله عليه

١– ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، ج ٣٧، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م، ص ١١٩.
٢– الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة ابن سيناء للنشر والتوزيع، القاهرة، ج ٢، ٢٠١٠م، ص ١٠.

وسلم- يقول: «إنّ الرجل ليدفع عن باب الجنّة بعد أن ينظر إليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق»[١].

وهكذا فإنّ هذا المعين الذي نهل منه أعطاه نثرا من جوامع الكلم، وغذّاه بفصيحه، وأمده بالمثل، والحكمة، فضلاً عن الآداب العامة المهذبة للسلوك. وكل ذلك مما يرقي الذوق، ويطوّر الحس النقدي، ويجعل صاحبه قادراً على تمييز ما يعرض عليه من نصوص أدبية.

ثالثا– مجالسته العلماء: مجالسة العلماء ظاهرة لازمت عبد الملك بن مروان، وقد جاء في الخبر الذي ذكرناه سابقا مجالسته لبريرة مولاة عائشة التي أفاد منها في علم الحديث، كما وردت مجالسته للشعبي، وقد قال عنه الشعبي: «ما جالست أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عَبد المَلك بن مروان، فإنّي ما ذاكرته حديثا إلا زادني فيه، ولا شعرا إلا زادني فيه»[٢]. وقد ارتبطت بسيرته أسماء عدد من العلماء مروا بمجالسه أخذ عنهم وأفاد منهم غير بريرة والشعبي اللذين مر ذكرهما، منهم الصحابة؛ فقد ذكر أهل المدينة أنّه «حفظ عن عثمان، وسمع من أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله وغيرهم من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-»[٣].

ومن المتوقع أن تلك المجالسات أفادته كثيراً وأسهمت في بنائه المعرفي، لما في ذلك من تعميق لصلته باللغة وآدابها، وفوائد أخرى.

رابعاً– مجلسه خليفةً: كانت مجالس الخلفاء الأمويين من أسباب ازدهار الأدب في العصر الأموي، إذ اهتموا بهذا الجانب بصورة واضحة وجعلوا للشعراء والأدباء مكانة خاصة، وقد حمل لنا التاريخ أنّ معاوية بن أبي سفيان -

١- ابن كثير، البداية والنهاية مرجع سابق، ص ٣٧٩.
٢- ابن عساكر، تاريخ دمشق، مرجع سابق، ص ١٢٤.
٣- ابن عساكر، المرجع السابق نفسه، ص ١١٤.

مؤسس الدولة الأموية- كان يهتم بهذا الجانب وله مواقف مع الشعراء ظهر فيها متذوقا للشعر ومهتما به، ويروى عنه أنه حث على تعلم الشعر وأوصى بذلك فقال -رضي الله عنه :«على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب، وقال اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أحجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلّا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبــتْ لي هِمتي وأبــى بَلائي ... وأخـذي الحمدَ بالثمنِ الربيحِ

وإقحامِي على المكروهِ نفسي ... وضـربي هـامةَ البطلِ المشيحِ

وقولي كلّما جشأتْ وجاشتْ ... مكانَك تُحمدي أو تَستريحي

لأدفــعَ عـن مـآثـرَ صـالحـاتٍ ... وأحمي بعدُ عن عِرضٍ صحيحِ[1]

وتبع معاوية الخلفاء الأمويين فساروا على نهج سلفهم، ففتحوا مجالسهم للشعراء ومدحهم، بل وشجعوا المدح وسيلةً دعائيةً تدعم مواقفهم السياسية والاجتماعية، وفي عهدهم شهدت عاصمتهم وفود الشعراء «حيث ينشدون الخلفاء والأمراء وينالون عطاءهم، وكان أغلب ذلك الشعر مديحا»[2]، وقد كان عبد الملك واحدا من هؤلاء الخلفاء الذين شجعوا المدح في مجالسهم واستفاد من الشعراء في هذا الجانب، فعمّر مجالسه بالشعر، وكان الشعراء يؤمّون مجلسه وينالون العطاء، وكثيرا ما يجدون فيه النقد والتقويم، كما أنّ مجالسه شهدت حوارات بينه وعدد منهم تظهر ثقافته ومعرفته بالشعر وتوضح ذائقته الأدبية.

١- ابن رشيق القيرواني، العمدة، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ج١، ط١، ٢٠٠١ م، ص١٩.

٢- عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سابق، ص ١٩٢.

خامسا– تعدّد البيئات: عاش عبد الملك في بيئات مختلفة، فهو ابن بيئة المدينة التي ولد وترعرع فيها، فنهل من فيضها العلمي، واختلف إلى علمائها، فتعلم وتأدب على أيديهم، وقد كانت المدينة على العهد الأموي من بيئات الشعر والأدب، وكانت تعج بمجالس الشعر والغناء[١]، ورغم أن عبد الملك لم يعرف أديباً أو مرتاداً لهذه المجالس، وعرف في ذلك الحين بصلته بالقرآن والسنة، وبالعبادة والتنسك، لكنّ البيئة تلقي بأثرها على من عاش فيها ما يجعلنا نعدها من المؤثرات في تكوينه الأدبي.

ثمّ عاش عبد الملك في بيئة الشام، وهي من بيئات الشعر العربي في ذاك العصر، وإن كانت أقل عطاءً عن غيرها من البيئات، فشعر المديح الذي اشتهرت به وافد عليها من بيئات الحجاز والعراق ونجد، حيث كان الشعراء يفدون للخلفاء لمدحهم ونيل عطاياهم[٢]. كما شهد بيئة العراق التي كان طابعها التنافس الشديد بين الشعراء، وكانت أسواقها منابر لتنافسهم لا سيما شعراء النقائض الذين أغنوا الأدب العربي بشعرهم[٣]، وكذلك تأثر عبد الملك بالبيئات الأخرى مثل: الحجاز وغيرها، وقد «عرفت كل بيئة من هذه البيئات بطابع خاص يميزها عن غيرها، فكانت الحجاز والشام قد اختصتا بلون من الشعر الغنائي الغزلي حيث اتصلت أسبابها معا، فكانت الحجاز تمد الشام بشعرائها ومغنيها، وكان المزاج العام فيهما متقاربا، أما نجد والعراق فكانتا أوفر حظا في الشعر وأكثر قربا من روح البداوة حيث استعرت فيهما المنافسات والصراعات»[٤].

١- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، القاهرة، ط٢٣، ١٩٦٣م، الصفحات: ١٣٩، ١٤٠، ١٤١.
٢- ينظر: عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سابق ص ١٩٣.
٣- ينظر: شوقي ضيف، المرجع السابق، ص ٢٤١.
٤- محمد صالح الشنطي، في الأدب العربي القديم (عصوره وتطوره وفنونه ونماذج مدروسة منه)، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل ن ط١١٤١٣هـ ١٩٩٢م، ص ٢٣١.

إنّ هذه البيئات أسهمت في بنائه شخصيةً ذات معرفة بالكلمة ذواقة لها، فالبيئات تؤثر في الإنسان وتسهم في تكوينه الأدبي، وروافدها العلمية والثقافية تبني شخصية الناقد وتطور ملكته الذوقية.

المبحث الثّاني: مفهوم التذوق الأدبي وقيمته النقدية

(ذوق) كلمة واضحة المعاني والدلالات، وقد أخذت بعدها المادي المرتبط بما يقوم به اللسان لمعرفة الطعم، كما أخذت بعدها الآخر الذي يعني الإحساس بالشيء وإدراكه، وحول هذين البعدين دار حديث الباحثين، فنجد الدكتور إبراهيم عوض في حديثه عن كلمة (ذوق)، يقول «فالكلمة ذات أصل مادي ككثير من الكلمات الأخرى كما هو واضح، ثم اتسع معناها بحيث لم تختصر على الطعام والشراب فقط، بل أصبحت تتعلق أيضا على ما يحسّه الإنسان من خلال حواسه الأخرى، ثم ما يدركه بعقله ووجدانه»[1].

ويظهر أن هذا الاستعمال استقر منذ الجاهلية حيث نجد عنترة مثلا يقول:

وإذا ظلمتُ فإنّ ظلميَ باسلٌ مرُ مذاقتُه كطعمِ العلقمِ[2]

فهنا عبّر عنترة عن ظلمه بأن جعل له مذاقاً يحسه الإنسان، ولكي يدرك السامع ذاك المذاق قربه له بتشبيهه بطعم العلقم المحسوس مادياً.

كذلك نجد القرآن استعمل الكلمة فوضّح المراد منها في الحالتين، فحينما وصف آدم وحواء – عليهما السلام – في الجنّة أخبر عن الذوق بمعنى ما يميزه اللسان، فقال تعالى: (فلمّا ذاقا الشجرةَ بدتْ لهما سوءاتُهما...)[3] ثم ذكر ذات الكلمة بمعنى الإحساس فقال: (كمثلِ الذينَ مِن قَبلِهم قريبًا ذاقوا وبالَ أمرِهم

١- إبراهيم عوض، التذوق الأدبي، مكتبة الثقافة، ٢٠٠٥م، ص٧.
٢- التبريزي، شرح القصائد العشر، دار الجيل، بيروت، ص١٩٦.
٣- سورة الأعراف، الآية ٢٢.

ولهم عذابٌ اليمٌ)[١]. ومن هذا المعنى غير المادي، جاء مصطلح (التذوق الأدبي) الذي أخذ بعده من كلمة (ذوق)، وهي كلمة وردت في النقد العربي منذ القدم وقد استعملها ابن طباطبا العلوي في كتابه (عيار الشعر)، حيث قال: «فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تتغير معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه»[٢]، والمعنى عند ابن طباطبا واضح؛ فهو يميل إلى أنّ الذوق شيء من طبع الإنسان يؤهله لمعرفة الوزن فلا يحتاج لمعرفة العروض ويرى أنّ تعلم العروض يرقي الذوق.

وقريب من هذا ما ذهب له ابن خلدون في مقدمته إذ يقول: «اعلم أنّ لفظة (ذوق) يتداولها المعتنون بفنون البيان، ومعناها حصول ملكة الفصاحة والبلاغة للسان»[٣]، ويذهب إلى أن الملكة حينما تتمكن من صاحبها فإنّها تحكمه بالتزام جادة نهج العرب في كلامهم، «فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ إلى وجود النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم، ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة، والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه لسانه لأنّه لا يعتاده ولا تهديه إليه ملكته الراسخة عنده»[٤]، ويسحب ابن خلدون الفكرة لحال الأديب صاحب هذه الملكة حينما يتحول لمتلق، فيرى أنّها تزوده بالحس النقدي الرافض لكل ما ينبو عنه الذوق، فيقول: «وإذا عرض عليه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم، أعرض عنه ومجه، وعلم أنّه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم»[٥].

١- سورة الحشر، الآية ١٥.
٢- ابن طباطبا، عيار الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣، ص٩.
٣- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار صادر، بيروت ط٢، ص٤٥٤.
٤- المرجع السابق، ص ٤٥٥.
٥- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ويلحظ أنّ الذوق - بهذا المفهوم - مناسب لوصف حالة الشاعر أو الأديب التي تمثل ملكة من ملكات العطاء عنده، ويمكن أن ينعكس ذات الأمر في حالة الناقد؛ فالناقد الذي لا يملك الذوق طبعا يكون غير مؤهل لمعرفة العمل الأدبي.

أما التذوق فهو الناتج من إعمال الذوق، ونجده يظهر في مرحلتين: مرحلة ما قبل ميلاد العمل الأدبي، ومرحلة ما بعده، فالأديب يمكنه تذوق أشياء كثيرة واستحسانها بذوقه، حتى إذا جاء العمل الأدبي، أصبح تذوقه جزءاً من مكونات نتاجه الأدبي شاعراً كان أم كاتباً، أم ناقداً، فبالتذوق يستطيع الناقد تمييز الجيّد من الرديء، إذ يعد التذوق أول مراحل التمييز، ولذا كان النقد في عصر ما قبل الإسلام، ومدة العصر الإسلامي مبنيا بصورة رئيسة على أحكام عابرة غير مسوغة يتحكم فيها استحسان الناقد للشعر أو عدم استحسانه بمقياس ما أدركه أو أحسه تجاه النص، ما يمكن اختصاره بالقول: (بما تذوقه). ولذا كان التذوق مرحلة من مراحل النقد القديم، وهي مرحلة إن عدت غير مكتملة النضج بمقاييس مراحل ما بعد توسع حقل النقد واتساع مفهوماته ومجالاته وأنواعه واصطلاحاته؛ فإنّها تعد مؤشرا لنضج الذوق عند الأقدمين، وهو نضج تقرّه سجاياهم السليمة، ومعرفتهم بلغتهم، وإجادة فنونها، وهذا ما جعلهم لا يهتمون بتفاصيل مكنونات النص ويكتفون بأثره في نفوسهم؛ إذ «غاية نقدهم أن يأخذوا الكلام منقطعا عن كل مؤثر؛ بل منقطعا عن بقية شعر الشاعر ويتذوقونه وفاقا لسليقتهم ثم يفصحون عن رأيهم»[1]، فالنقد عندهم «قائم على الإحساس بأثر الشعر في النفس، وعلى مقدار وقع الكلام على الناقد، فالكم مرتبط بالإحساس قوة وضعفا، والعربي يحسّ الشعر إحساسا فطريا لا تعقيد فيه ويتذوقه جبلّة وفطرة، وعماده في الحكم على ذوقه وعلى سليقته»[2]، وذلك ما يظهر في شواهد كثيرة حملتها كتب الأدب

١- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار. الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م، ص٢٢.

٢- المرجع السابق، ص٢٣

العربي، منها ما جاء في قصة امرئ القيس وعلقمة الفحل اللذين تحاكما لأم جندب- زوجة امرئ القيس- فقضت بتفضيل علقمة على امرئ القيس بمقياس تذوقي، بني على تقديرها وإحساسها بالمفردات، فحينما وصف امرؤ القيس فرسه فقال:

فللسّاقِ أُلهوبٌ وللسوطِ درّةٌ وللزّجرِ مِنه وقعُ أخرجَ مُهذبِ

وقال علقمة:

فأدركهنَّ ثانياً مِنْ عِنانِه يمرّ كمرِ الرائحِ المُتحلّبِ

وقد حكمت أم جندب لعلقمه معللة حكمها بقولها لامرئ القيس: «ففرسه أجود من فرسك؛ لأنّه قد أدرك الخيل ثانيا من عنانه، من غير أن يضربه بسوط أو يحرك ساقيه»[١].

وواضح أنّ الحكم كان تقديريا، دخل فيه الجانب التذوقي الشخصي أكثر من الجانب المبني على التحليل العميق، ولو كان استعمال السوط عيبا ما ذكره امرؤ القيس الذي يعرف صفات الخيل ويجيد وصفها[٢] ومثل هذا النقد التذوقي يظهر لنا- أيضا- في قصة طرفة مع المسيّب بن علس التي جاء فيها أنّ المسيب حينما أنشد قوله:

وقد أتناسَى الهمّ عندَ ادّكارِه بناجٍ عليهِ الصَيعريّة مكدمِ

قال طرفة: «استنوق الجمل»، أي أصبح الجمل ناقة بقرينة (الصيعريّة) الملازمة للنوق لا الجمال[٣]، وهذه ملاحظة بنيت على التذوق بعد استيعاب المفردة وما

١- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، الصفحات: ٢١٢، ٢٠١٣.
٢- ينظر:الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩م، الصفحات: من ٤١ إلى ٥٢.
٣- ينظر: أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ج١، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٩٨م، الصفحات: ٥٤، ٥٥.

يقترن بها، ولو قبل ذوق طرفة تشبيه الجمل بالناقة بقرينة (الصيعريّة) لقبل البيت مستقيما بلا خلل، لكنّ ذوقه لم يقبل ذلك، فاستنكر التشبيه وردّ بيت المسيّب.

ومنها قصة النابغة مع حسان بن ثابت التي تتلخص في أنّه حينما قَدِم الأعشى والخنساء وحسان إلى سوق عكاظ؛ قدّم النابغة الخنساء على حسان، وقدم الأعشى على الخنساء، فلم يرض حسان ذلك، فقال للنابغة: «أنا أشعر منك ومن أبيك»، فرد النابغة: «يا بن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنّك كالليلِ الذي هو مُدركي وإنْ خلتُ أنّ المُنتأى عنك واسعُ

خطاطيفُ جنٍ في حبالٍ متينةٍ تمدّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ»[1]

لتنتهي القصة إلى قول الراوي «فخنس حسان لقوله»، فيقف ذلك شاهدا على أكثر من شيء، مثل: تذوق حسان لشعر النابغة، ومعرفة تقدمه على شعره بالقدر الذي يجعله يخنس أمام حجة النابغة، رغم أنه عرف بكونه أشعر أهل يثرب الذين يعدون أشعر أهل المدر[2].

إنّ التذوق الأدبي لم يقتصر على المفهومات المتعلقة بالاستحسان أو عدمه وإنّما تجاوز ذلك للجانب المتعلق بالفهم أيضا، يقول الدكتور ماهر شعبان عن التذوق الأدبي ـ: «إنّه نشاط يتكامل فيه الجانب العقلي والجانب الوجداني...»[3]، ثم يواصل قوله فيقول: «إنَ الفهم عملية يجب أن تسبق تذوق القصيدة، إنّه جزء منه، وأساس له، وقد يكون الإخفاق في فهم المعنى حائلا قويا دون شعور المرء بالنص وتذوقه إياه»[4].

١- أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، مصر، طبعة دار الشعب عن طبعة دار الكتب، (د.ت)، مج ١١، ص ٣٧٩٢.

٢- ينظر:المرجع السابق، ص: ١٣٥٠، ١٣٥١.

٣- ماهر شعبان عبد الباري، التذوق الأدبي النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص٨٤

٤- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

إنّ فهم النّص سبب من أسباب التذوق، يفسر لنا عدم حاجة العرب في عصورهم الأولى لنقد تحليلي مسهب في التفاصيل، فهذا أمر مناسب لطبيعة تلك المدة، إذ كانت ملكة النقد عندهم «مبنية على الذوق الفطري لا الفكر التحليلي، فهو نقد ذوقي غير مسبب»[١]، وذلك بسبب معرفتهم لشعرهم وبيئته وعدم حاجتهم لما احتاجه المتأخرون من عمليات تشرّح النص وتوسعه وتنسج حوله ما يوضحه، بدرجة ربّما تخرجه عن مراد الشاعر.

وارتباط التذوق بالفهم أمر طبعي، فالتذوق عملية تحتاج لإعمال العقل، ولا يمكن أن يحكم الناقد على عمل لم يكتمل تصوره عنده، فالنّص مثلما يحرك الأحاسيس بموسيقاه، ويبهر الخيال بصوره، لا بُدَّ أن يظهر في مرآة العقل مفهوما، ولذا عدّ العقل المرجع الأخير في التذوق، يقول الدكتور إحسان عباس: «العقل هو المرجع الأخير في التذوق، ولهذا كان الصدق في الشعر أصلح لأنّه مقبول لدى العقل»[٢].

ولذا يتضح أن التذوق الأدبي عملية متكاملة الأدوار جامعة بين المشاعر والعقل، تلعب فيها المعرفة دورا فعالا إلى جانب الملكة، مع وجود مساحة كبيرة للمران والتطوير عند أصحابها.

مما سبق يمكننا أن نخلص إلى أنّ الذوق الأدبي، ملكة إنسانية تمكن صاحبها من معرفة الأعمال الأدبية، والإحساس بأثرها حسنا وقبحا، وهي ملكة قابلة للتطوير باكتساب المعرفة الأدبية والإلمام بلوازمها.

أما التذوق، فهو عملية التمييز الناقدة للأعمال التي يستطيع من خلالها صاحب الذوق عرض العمل الأدبي على ذائقته ثم الحكم عليه.

١- عبد العزيز عتيق - تاريخ النقد عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٠م - ص ٢١.
٢- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سابق، ص١٧.

إنّ القيمة النقدية للتذوق الأدبي تظهر في ارتباطه الوثيق بالنقد الذي لا يمكن أن ينفك عنه، فهي عملية أساسية في النقد، ولا يمكن أن تتم عملية نقدية بعيدا عنها، إذ إنها مزيج من الفهم والإدراك للنّص، والإحساس به، وبهذه القيمة الواضحة للتذوق يمكننا الحكم على النقد العربي القديم في عصوره الأولى بكونه قام بدوره كاملا، ومناسبا لما كان عليه العربي الأول من معرفة بلغته وإلمام بما يحيط بالقصيدة من أشياء احتاجها الناقد لاحقا، فأدرجها ضمن معالجاته النقدية.

المبحث الثالث: تذوق عبد الملك للشعر

حملت سيرة عبد الملك بن مروان مواقف له مع الشعراء يظهر فيها تذوقه للشعر، فتارة يستحسن القول ويبدي إعجابه، وأخرى يبيّن ضعف النص، وأحيانا يظهر فهمه لمن ألمح بالشعر أو عرّض به، وفي كل تلك المواقف تظهر شخصيتُه ناقداً، وتظهر التذوق عنده، ومن تلك المواقف ما روي عن أنه سأل الفرزدق وجريرا عن أشعر أهل زمانهم فذكر كل واحد منهما نفسه وذا الرمة، فأحب عبد الملك أن يرى ذا الرمة لقولهما، فطلب ذا الرمة فجيء به إليه، فسأله أن ينشده أجود شعره، فقال:

ما بالُ عينكَ منها الماءُ ينسكبُ كـأنّـه مـن كُـلـى مـفـريـةٍ سـربُ

ولم يراع أن عيني عبد الملك كانتا تسيلان ماءً، فغضب عليه ورده، ولم يقبل منه حتى عاد مرة ثانية بقوله:

ما بـالُ عينيَ منها المـاءُ ينسكبُ كـأنّه من كُلى مفريةٍ سـربُ[1]

ويلاحظ أن تذوق عبد الملك للبيت جعله يرد الشاعر، فالخطاب المباشر له، الموافق لحال عينه التي كان منها الماء منسكبا، خطاب لم يراع مناسبة المقال للمقام،

١- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م الصفحات: ٢٧٨، ٢٧٩.

وجاء يحمل ما ينفر منه الذوق السليم الذي ما قبله ذوق عبد الملك فحمله على رد الشاعر بداية، وقبوله نهاية.

ولعبد الملك مواقف مع شعراء عصره أمثال: جرير، والأخطل وغيرهما، تشير إلى تذوقه الشعر وانفعاله به، وتجاوبه معه، ومن ذلك أنّه لما أنشده الأخطل قصيدته التي يقول فيها:

شمسُ العداوةِ حتى يستقادَ لهمْ وأعظمُ النّاسِ أحلاماً إذا قَدِروا

قال: «خذ بيده يا غلام فأخرجه، ثم ألق عليه من الخلع ما يعمره، ثم قال: إنّ لكلّ قوم شاعراً، وإنّ شاعر بني أمية الأخطل»[1].

وهنا يظهر متأثراً بالمدح منفعلاً به، رافعا قدر المادح، ومنزلاً له منزلة (شاعر بني أمية)، وهي منزلة رفيعة في عصر حكمهم وسيادتهم، فإذا قرئ الموقف مع نص ما مدح به، فإننا نقف على تذوق رجل يربط بين الأدب والسياسة ويوظف الصوت الشعري في منبر السياسة بما يخدم حكمه ويرفع أيضا منازل الشعراء في مجتمعهم، وهذا أمر يفيد الأدب والسياسة معا.

أما جرير فله مواقف متباينة معه، يستحسن فيها شعره تارة، ويرفض بعضه أخرى، ومن ذلك أنه حينما أنشده قصيدته التي مطلعها:

أتصحو أم فؤادُك غيرُ صاحِ غداةَ همّ قومُك بالرواحِ

التي يقول فيها:

سَأَشكُرُ أَن رَدَدتَ عَلَيَّ ريشي وَأَثبَتَّ القَوادِمَ في جَناحي

أَلَستُم خَيرَ مَن رَكِبَ المَطايا وَأَندى العالَمينَ بُطونَ راحِ

١- السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٣٦٤.

قال عبد الملك: «من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت»[1].

وهنا يظهر متذوقا طروبا، وناقدا مميزا لقيمة الشعر، يهزه الشعر وقتما يرفعه الشاعرُ وقومَه لمنزلة كونهم خير الناس وأكرمهم.

أما حينما سمع قوله مفاخرا به:

هذا ابنُ عمّي في دمشقَ خليفةً لو شئتُ ساقكمُ إليّ قطينا

قال: «جعلتني شرطيا لك، أما لوقلت: لو شاء ساقكم إلي قطينا، لسقتهم إليك عن آخرهم»[2]، وفي هذا تظهر شخصية الخليفة، لا شخصية الناقد المحايد المنفصل عن مقام الحاكم، ولو أنه نظر بغير عين الخليفة، فربّما لا يرى أنّه أنزله منزلة الشرطي، فاستجابة الرجل لبني عمومته الذين يمثلون السند والقوة، لا تنقص من منزلته.

ومن الأخبار التي تدل على تذوقه الشعر أنّه كان إذا جلس للقضاء أوقف من ينشده:

إنا إذا نَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى وَأَنْصتَ السَّامِعُ لِلْقَائِلِ

وَاصْطَرَعَ النَّاسُ بِأَلْبَابِهِمْ نقْضِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ فاصلِ

لا نجعلُ الباطلَ حقاً ولا نلفظُ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِل

نَخَافُ أَنْ تُسَفَّهَ أَحْلامُنَا فنجهل الحقّ مع الجاهل[3]

وهذه الصورة توضح أن الشعر يمثل عنده منبها، يوقظ حسه في وقت القضاء ويذكره بالعدل والتزام نهجه، وهذا مما يشير إلى تذوقه للشعر وتأثره به.

١- ابن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق، ص٣٣١.
٢- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، مرجع سابق، ص ١٥٨.
٣- ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

وتذوق الشعر عند عبد الملك يتجاوز الصورة النقدية التقليدية إلى أبعاد أخرى؛ إذ يدفعه لاستعماله إشارات تشبه الرموز السرية لإيصال ما يريد، ومن ذلك أنّه كتب ذات مرة للحجاج بن يوسف في شأن قطريّ بن الفجاءة الذي عظم الحجاج شأنه، فقال: «أوصيك بما أوصى به البكري زيداً»، فنادى الحجاج في الناس مستفسراً عن المراد، فجاءه من أخبره أن ما أوصى به البكري زيداً هو قوله:

فإنْ وضعوا حرباً فضعْها وإنْ أبوا فشبّ وقودَ الحربِ بالحطبِ الجزلِ

فإن عضتِ الحربُ الضروسُ بنابِها فعرضةُ نارِ الحربِ مثلُك أو مثلِي

وحينما فهم الحجاج ما قصده عبد الملك واستطاع فك رموز الرسالة، أدرك خطورة الأمر فقال: «صدق أمير المؤمنين وصدق البكري»[١].

وكذلك يحمله تذوق الشعر على القدرة على بناء صور كثيرة في مخيلته، يستدعيها من حين لآخر، فيجعل منها مجال تنافس بين جلسائه، ومن ذلك أنه سأل من حوله فقال: أي المناديل أفضل؟ فانصرف الناس إلى مناديل مصر ومناديل اليمن التي يبدو أنها أجود المناديل آنذاك، لكنّ عبد الملك كان يحلق في عوالم الشعر متذوقا ومستحضرا صورة لمناديل أخرى، فقال لهم: «أفضل المناديل ما قال أخو تميم:

لّما نزلنَا نصبنا ظلّ أخبيةٍ وفارَ للقومِ باللحمِ المراجيلُ

وردٌ وأشقرُ ما يؤنيهِ طابخُه ما غيرَ الغليّ مِنه فهو مأكولُ

ثمّتَ قُمنا إلى جُردٍ مسومةٍ أعرافُهن لأيدينا المناديلُ[٢]

١- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ط٣، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م، ص ٢٠٧م.

٢- المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، ج ١، بدون تاريخ، ص ٣٢٧.

فالمناديل التي يتصورها أجود المناديل هي أعراف الخيل، وهي صورة مناديل لا يستحضرها إلا من تذوق مفردات القصيدة وأدرك الصورة التي رسمها الشاعر، فهي مناديل مجازية لا تنافس بجودتها المناديل الحقيقية، وليس من الحسن أن تستعمل أعراف الخيل مناديل، ولكن هذه الأعراف -في تلك اللحظة التي استعملها الشاعر مناديل- تذوق عبد الملك صورتها، فأحس بجمالها، حتى رفع شأنها وجعلها أفضل المناديل، ما يظهره متذوقا قادرا على استدعاء الصورة، متخذاً منها مادة أدبية تحرك مجالس الأنس، بما يحفز الأذهان فيدفعها للتنافس وإخراج المخزون المعرفي.

ويصل التذوق عند عبد الملك درجة أن يتدخل أحيانا لتعديل بيت من الشعر وتحسينه للصورة التي يراها مناسبة، وليصل إلى ذلك فهو يعرضه على جلسائه، فيسمع رأيهم ثم يفصل في الأمر، فقد روى المبرّد أن عبد الملك سأل جلساءه عن بيت الشاعر نُصيب الذي يقول فيه:

أهيم بدعدٍ ما حييت وإن أمت أُوكّل بدعد من يهيم بها بعدي

فعابوه، فسألهم عن قولهم لو كان الأمر إليهم؟ فقال أحدهم:

أهيم بدعدٍ ما حييت وإن أمت فوا حزنا من ذا يهيم بها بعدي

فرد عبد الملك قوله وعده أسوأ من قول نصيب، وحينما سأله جلساؤه عن ماذا يقول في ذلك؟، قال لهم:

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

فقدموه على الشاعرين.[1]

١- المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، مرجع سابق، ص١٠٦

والقصة تشهد لعبد الملك بذائقة واضحة شهد بها أهل ذاك المجلس فقدموه على نصيب والشاعر الآخر، ورغم أن من الوارد أن يقدمه جلساؤه على الشعراء، احتراما أو تملقا، فإنّ الناظر لبيت عبد الملك يجد أن الحكم كان صادقا، إذ أحسن عبد الملك تعديل البيت بما يظهر حبه لدعد، فالطبيعة البشرية لا تناسب أن يوكّل العاشق من يهيم بعشيقته بعده، كما ذكر نصيب، ولا أن يأسى لفقدانها من يهيم بها بعده، كما ذكر الآخر، ولكنها تناسب أن يتمنى العاشق ألا يظفر أحد بعده بمحبوبته، وهذا ما ذهب إليه عبد الملك، فبيّن ذائقته، وقدراته الأدبية.

ومن هذه الشواهد يظهر تذوق عبد الملك للشعر، ويتضح أنّه تمثل في أكثر من ملمح، فنجده في موقف رافضاً الشعر ورادّاً صاحبه، وقتما لا يحسن الشاعر البداية، كما كان في شأن ذي الرمة، أو رافضا لمعنى وصله من بيت شعر، كما جاء في موقفه من بيت جرير، الذي عدّه إنزالاً له لمقام الشرطي، أو معجباً بشعر رافعاً صاحبه لمقام اجتماعي، كما كان في شأن الأخطل، أو مستحسناً للنّص، كما جاء في شعر جرير الذي وصفه بقوله «من أراد أن يمدحنا فليمدحنا بمثل هذا»[1]، أو جاعلاً الشعر منبها له ليلزم الجادة، مثلما جاء في جعله من يذكره بأبيات من الشعر وقت الحكم، أو متخذاً الشعر رمزا سرياً للتواصل بينه وولاته، كما كان فيما بينه والحجاج بن يوسف الثقفي، أو جاعلاً منه وسيلة لتحريك الأذهان لعرض معارفها في مجالس الأنس، كما في قصة أفضل المناديل، أو معدلاً البيت ليصبح أجود مما كان عليه، كما في بيت نُصَيب.

وكل تلك الأشياء توضح أنه كان ذواقا للشعر مجيدا لفهمه ونقده.

١- ابن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق، ص ٣٣١.

المبحث الرابع: أثر التذوق في مواقفه السياسية والاجتماعية

ظاهرة تأثير الشعر في المواقف السياسية والاجتماعية ظاهرة قديمة عند العرب، فقد وردت قصص كثيرة غيّر فيها الشعراء الموقف ووجهوه الوجهة التي يريدون، كما أن الشواهد حملت لنا اعتماد معرفة الشعر وتذوقه في الحكم، حيث تقف قصة الزبرقان بن بدر مع الحطيئة شاهدا على ذلك، فإنه حينما شكي الزبرقانُ الحطيئةَ إلى عمر لقوله:

دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتِها واقعدْ فإنّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

قال له عمر: ما أراه هجاك، أما ترضى أن تكون طاعماً كاسياً؟

فقال: يا أمير المؤمنين إنه لا يكون هجاء أشد من هذا، فبعث عمر إلى حسان بن ثابت فسأله عن ذلك فقال:

يا أمير المؤمنين ما هجاه ولكن سلح عليه، فعند ذلك حبسه عمر وقال: «يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين، ثم شفع فيه عمرو بن العاص فأخرجه وأخذ عليه العهد أن لا يهجو الناس واستتابه»[1]، والشاهد أنّ عمر لم يفهم المراد من وصف الحطيئة للزبرقان بأنّه (الطاعم الكاسي) وحمل الوصف على ظاهره، بينما علم حسان المعنى المراد من سياق النّص، فوصفه بقوله: «سلح عليه» وهو تعبير مجازي يعبر عن أبشع صورة، فانتقلت تلك الصورة للخليفة عمر، فقضى بحبس الحطيئة، فقدم نموذجا لاعتماد رأي أهل الأدب والذائقة الأدبية في الشهادة فيما يلي الأدب، بل وأسهم كذلك في رفع شأن الأدباء في مجالس الخلفاء.

لقد سار على هذا النهج كثير من الخلفاء بعد عمر منهم عبد الملك بن مروان الذي حملت سيرته شواهد كثيرة في هذا الاتجاه؛ تبين أنه تأثر بالشعر فغيّر موقفه

١- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، مرجع سابق، ص٣١٦.

الذي كان عليه لموقف آخر؛ وقد تعددت صور ذاك التأثر واختلفت المواقف التي ورد فيها، ولكن يمكن تلخيص ذلك في الآتي:

أولا– المدح: المدح من الوسائل الشعريّة القديمة التي تقرّب بها الشعراء للسلطان، وقد أقر العرب ذلك، وأصبح سلوكا مقبولا عندهم، يسعى له الشعراء والحكام معا، لأنّه يناسب الطبع الإنساني. يقول الرافعي: «والمديح في فطرة الإنسان، لأنّه إحساس الكبرياء التي هي عمود الإنسانية فيه، فإنّ النّاس متفاضلون في القوة على الأعمال، وهم كذلك متفاضلون في حسهم لهذه القوة، فالواثق بنفسه الذاهب بها مذهب الغناء والاعتداد يجد في طبعه حركة واهتزازا متى حققت له أعماله تلك الثقة ولم يكذب وهمه في الاعتداد باطلا، فذلك الاهتزاز هز إحساس الكبرياء الكامنة فيه، وهو الذي يقصد تصويره بالفخر والمديح»[١].

ورغم أنّ سيرة عبد الملك بن مروان حملت ما يشير إلى أنّه كان ينهى عن الإطراء[٢]، لكن ذلك مكّن أن يحمل على أنّه كان لا يحب الإطراء في غير مقام الشعر المختلف عن غيره من المقامات، فهذا مقام خاص سمحت العرب للشعراء فيه بما لم تسمح به لغيرهم مثل: مخاطبة الملوك بأسمائهم، ونسبتهم لأمهاتهم، ومخاطبتهم بالكاف كما يخاطب العامة، كما قبلوا منهم الكذب[٣]، ولذلك نجد عبد الملك يقبل منهم المدح ويحثهم عليه، وذلك ما كان في شأن جرير الذي ذكرنا خبره سابقاً، وغيره من الشعراء، وقد شجع عبد الملك الشعراء على مدحه فأقبلوا عليه ومدحوه، فأتاح له ذلك فرصاً لنقدهم، فقدم بعضهم وأخّر آخرين، واستحسن منهم، ورد شعر بعضهم، وله في هذا الجانب مواقف كثيرة مع الشعراء.

١- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ج٣، - ط٦، ١٤٢٢، هـ ٢٠٠١م، ص٩٤.
٢- ينظر:السيوطي، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٣٦١.
٣- ينظر:ابن رشيق، العمدة، مرجع سابق، ص ١٤.

لقد استطاع بعض الشعراء أن يغيّروا مواقفه بالمدح، حتى في أهم الموضوعات مثل ولاية عهده، التي أراد أن يجعلها لابنه الوليد بدلا من أخيه عبد العزيز، ولكن الأمر لم يكن سهلا إذ رفض عبد العزيز التنازل، وكان بعض الناس يريدونها للوليد، منهم الحجاج بن يوسف الذي كتب لعبد الملك بذلك، وأوفد إليه وفدا عليهم عمران بن عصام العنزي، فلما دخلوا عليه قام عمران خطيبا فتكلم، وتكلم الوفد وحثوا عبد الملك على أن يجعل الولاية لابنه الوليد، وأنشد عمران بن عصام في ذلك، فقال:

أميرَ المؤمنينَ إليك نُهدي ... على النَأي التحيةَ والسلاما
أجبني في بنيكَ يكنْ جوابي ... لهم عاديَّةً ولنا قواما
فلو أنَّ الوليدَ أُطاعُ فيهِ ... جعلت له الخلافةَ والزماما
شبيهُكَ حولَ قبتِه قريشٌ ... به يستمطِرُ الناسُ الغَماما
ومثلُك في التقى لم يصبُ يوماً ... لدنْ خلعَ القلائدَ والتمامَا
فإنْ تُؤثر أخاك بها فإنّا ... وجدِك لا نطيقُ لها اتهامَا
ولكنّا نُحاذرُ منْ بنيهِ ... بني العلات مأثرة سماما
ونَخشى إن جعلتَ الملكَ فيهمْ ... سَحابا أن تعودَ لهم جهامَا
فلا يكُ ما حلبتَ غداً لقومٍ ... وبعدَ غدٍ بنوكَ هُمُ العيامَا
فأقسمُ لو تخطاني عِصامٌ ... بذلك ما عذرتُ به عِصاما
ولو أنّي حبوتُ أخاً بفضلٍ ... أريدُ به المقالةَ والمقامَا
لعقبَ في بنيّ على بنيهِ ... كذلك أو لرمتُ له مرامَا

فمن يكُ في أقاربِه صدوعٌ فصدعُ الملكِ أبطؤه التئامَا

فهاجه ذلك على أن كتب إلى أخيه يستنزله عن الخلافة للوليد[١].

فهنا عرف الحجاج المدخل المؤثر في عبد الملك، وأدرك بحنكته السياسية أن مدحه ومدح ابنه سيرجح الكفة لصالح الوليد الذي يريده الحجاج، فأرسل هذا الوفد وعلى رأسه هذا الشاعر، الذي قام بدور كبير في هذا الحدث الكبير، يوضحه قول الراوي: «فهاجه ذلك، فكتب إلى عبد العزيز...»، ففي كلمة (هاجه) تعبير واضح عن تأثير تذوق عبد الملك للشعر، وتأثيره في موقفه.

والملاحظ أنّه حتى لو كانت القصة مصنوعة ومرتبة بمكيدة سياسية أسهم فيها الحجاج لعلمه بهوى عبد الملك، أو باتفاق بينه وعبد الملك، ففي القصة شاهد على تقبل المجتمع لنتاجها، فهو مجتمع يقبل شفاعات الوفود ويحترم أشعارها، ويقدر ما يصل إليه الحاكم من قرارات من أثر الشعر عليه، حتى في الأمور الكبيرة التي يقوم عليها أمر الأمة.

ثانيا– الاستعطاف: وهو أمر قديم في أدب العرب، فقد كان الشعراء يستعطفون السلطان بشعرهم، مسترحمين، أو مستشفعين، أو معتذرين.

وعلى هذا النهج سار عبد الملك بن مروان الذي شهدت مجالسه مثل هذه المواقف، وقصته مع جرير تشهد بذلك، فقد كان هوى جرير مع عبد الله بن الزبير، وقد ساءت أحواله بعد مقتل ابن الزبير، فاتصل بالحجاج فمدحه ليتقرب منه، فرأى الحجاج أن يقربه من الخليفة، وفي ذلك ذكاء سياسي، إذ كان جرير أحد الأصوات الشعرية القوية آنذاك، وكان الشعراء يمثلون الإعلام المجتمعي المؤثر.

وحينما قدم جرير على عبد الملك أعرض عنه بداية لكنه قبله في النهاية،

١- ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، الصفحات: ٣٦٩، ٣٧٠.

ذلكم أن جريرا استعطفه بشعره؛ فقد روى ابن عبدربه في العقد الفريد أنه «لما مدح جرير بن عطية الخطفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

أمْ من يغارُ على النساءِ حفيظةً إذ لا يثقنَ بغَيْرةِ الأزواجِ

وقوله:

دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نوحٍ فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا

قال له الحجاج: «إن الطاقة تعجز عن المكافأة ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فسر إليه بكتابي هذا»، فسار إليه ثم استأذنه في الإنشاد فأذن له، فقال: أتصحو أم فؤادك غير صاحي؟

قال له عبد الملك: «بل فؤادك»، فلما انتهى إلى قوله:

تعزتْ أمُ حزرةَ ثمّ قالتْ رأيتُ الواردينَ ذوي امتياحِ

ثقي باللهِ ليس لهُ شريكٌ ومَن عندَ الخليفةِ بالنجاحِ

سأشكُر إنْ رددتَ إليّ ريشي وأثبتّ القوادمَ في جناحِي

ألستمْ خيرَ مَن ركبَ المطايا وأندى العالمينَ بطونَ راحِ

ارتاح عبد الملك وكان متكئاً فاستوى جالساً ثم قال: «من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت»، ثم قال له: «يا جرير أترى أم حزرة ترويها مئة ناقة من نعم كلب؟، قال: «إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله».[1]

ومن هذا الموقف يتضح النفس الذي بدأ به عبد الملك، فقد كان معرضا عن الشاعر بسبب الخلاف السياسي حيث رد عليه: «بل فؤادك»، ثم ما لبث أن انتهى الأمر بعد الاستعطاف وتذوق الشعر لقبول الشاعر وجعل شعره نموذجا للمدح.

١- ابن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق، الصفحات: ٣٣٠، ٣٣١.

ثالثا– الاعتذار: روى ابن كثير في حديثه عن شبيب الخارجي فقال: «وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان، فقال له: ألست القائل:

فإنْ يكُ منكمْ كان مروانُ وابنُه وعمروٌ ومنكم هاشمٌ وحبيبُ

فمنّا حُصينٌ والبُطينُ وقَعْنبٌ ومنّا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ

فقال: «إنما قلت: (ومنا أميرَ المؤمنين شبيب)، فأعجبه حسن اعتذاره وأطلقه»[1]، فالشاعر نصب (أمير) على النداء فتغير المعنى من أن منهم شبيبا الذي صفته (أمير المؤمنين)، إلى أن منهم شبيبا دون صفة مع إثبات إمارة المؤمنين لعبد الملك، فعفا عنه عبد الملك، إذ قدّر ذكاءه وحسن تخلصه.

والقصة تشهد اهتمام عبد الملك بالشعر واهتمامه بأخباره، كما تشهد على تذوقه له وأثر ذلك التذوق في مواقفه فقد كان الموقف الأول مبنيا على الشعر، وكان العفو عنه مبنيا على الشعر أيضا؛ بعد تغيّر المعنى بتغيّر حالة الكلمة من الرفع إلى النصب، وهو أمر دقيق يقف عليه من يجيد العربية ويتذوق شعرها، وكان من الممكن أن يعدّ عبد الملك التخلص ضربا من الكذب ويصر على موقفه الأول، لكنه لم يفعل لتذوقه الشعر واحترامه للكلمة.

رابعا– قوة الحجة: وقد كان عبد الملك يقدّر الحجة والمنطق، ومن ذلك ما يظهر فيما دار بينه وكثيّر، فقد احتقر عبد الملك كثيّرا بداية لما رآه قصير القامة، ولكنه سرعان ما غيّر نظرته له بعد سماع شعره وتذوقه، فروي أنّه حينما دخل كثيّر على عبد الملك بن مروان، قال له: «تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه، فأجابه كثيّر: يا أمير المؤمنين، كل عند محلّه رحب الفناء، شامخ البناء، عالي السناء، ثم أنشأ يقول:

١- ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

وجــرّبــتُ الأمــــورَ وجرّبتني فقد أبــدتْ عـريكتـيَ الأمــورُ
ومـا تُخفى الـرجـالُ علـيّ إني بــهــمْ لأخـــو مـثـابـتـه خـبـيرُ
تـرى الـرجلَ النحيفَ فتزدريهِ وفي أثــوابِــه أســدٌ هـصـورُ
ويـعـجـبُـك الـطـريـرُ إذا تـراه فيخلفُ ظنَك الـرجلُ الطريرُ
بـغـاثُ الـطـيرِ أطـولُـهـا رقـابـاً ولم تطلِ الـبـزاةُ ولا الصقورُ
خشاشُ الـطـيرِ أكـثرُهـا فـراخـاً وأمُ الـصـقـر مـقـلاةٌ نـزورُ
ضـعـافُ الأسـدِ أكـثرهـا زئـيراً وأصـرمُـهـا الـلـواتـي لا تـزيـرُ
وقــد عـظـمَ الـبـعـيرُ بـغـيرِ لـبٍّ فـلـم يستغنَ بـالـعـظـمِ البعيرُ
يُـقـوّده الـصـبـيّ بـكـلِّ أرضٍ وينحرهُ على الـتربِ الصغيرُ
فما عِـظـمُ الـرجـالِ لهم بزينٍ ولـكـنْ زيـنُـهـم كــرمٌ وخـيرُ

وقد انتهت تلك القصة بأن احترم عبد الملك كثيّرا وغير رأيه فيه، وأقر له بالفضل، وقال: «قاتله الله، ما أفصح لسانه، وأضبط جنانه، وأطول عنانه، والله إنّي لأظنّه كما وصف»(١).

وهكذا يتضح أن تذوق الشعر عند عبد الملك بن مروان لم يقف عند حد المتعة الأدبية أو الرؤى التقويمية، وإنّما تحول التذوق عنده لدافع مؤثر في اتخاذ بعض المواقف السياسية والاجتماعية، التي أسهمت في تصحيح بعض مواقفه من الشعراء وخدمت الجانب الإعلامي لحكمه، وحققت له بعض أهدافه السياسية والاجتماعية.

١- إبراهيم بن علي القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، الصفحات: ٤٠٨، ٤٠٩.

خاتمة

الباحث في التذوق الشعري عند عبد الملك بن مروان يمر بأشياء كثيرة قبل أن يصل إلى خلاصة ما يريد، فهو يقف على مفهوم التذوق ومباحثه لغة واصطلاحا، وما كان من شأنه في عصور الأدب العربي الأولى؛ فيجده ظاهرة ممارسة وإن لم تسم بالتذوق، ثم ما ينفكّ أن يجدها عند النقاد الأوائل مثل ابن طباطبا العلوي، و ابن خلدون في مقدمته، فيدرك أن للموضوع جذوراً عميقة تجعل الأدب العربي ليس بحاجة لاستجلاب مفهوماتها من الآداب الأخرى، ذلك ما لا يعني دعوة لقطع التواصل بين الآداب من حيث الأخذ والعطاء بما يخدم أدبنا العربي ويطوره.

لقد لاحظ الباحث ذهاب بعض الباحثين إلى صعوبة الوصول لتعريف جامع مانع للتذوق، فرأى أن ذلك بسبب الأخذ من مصادر مختلفة دون ترجيح، الأمر الذي حمل الباحث على صياغة نص يقرَب المفهوم إلى الحد المناسب، لا يعده نهاية المطلب العلمي، فهو جهد المقل، لكنه جهد ييسر الأمر للباحثين في هذا الموضوع.

ومن خلال الدراسة وصل الباحث إلى النتائج الآتية:

١- عرف العرب التذوق الشعري منذ عصر الجاهلية وكان أساس النقد آنذاك، ثم استمر عبر الحقب التي تلت العصر الجاهلي، وقد ظهر اللفظ المعبّر عن الظاهرة النقدية في عصور متأخرة عن العصر الجاهلي لكنها من عصور الأدب القديمة.

٢- أدى التوسع في البحث عن مفهومات التذوق الأدبي إلى عدم الاتفاق على تعريف جامع مانع له.

٣- كان للبناء الديني والثقافي لعبد الملك بن مروان أثر واضح في تذوقه للشعر، لا سيما ثقافته القرآنية وكسبه في العلوم الدينية الأخرى.

٤- أسهمت البيئات المختلفة في التكوين الأدبي للخليفة عبد الملك، إذ أمدّته بما أسهم في تكوينه ناقدا متذوقا، فقد كان ذا ذائقة شعرية أسهمت في نقده للشعر.

٥- أثَّر تذوق الشعر عند عبد الملك بن مروان في بعض مواقفه السياسية والاجتماعية تأثيرا إيجابيا.

وقد لاحظ الباحث أنّ موضوع التذوق من الموضوعات التي يشكل فهمها على كثير من الدارسين، لذلك رأى أنه يحتاج لمزيد من البحوث التي توضحه وتجعله من الموضوعات سهلة الفهم والتناول لا سيما للمبتدئين، كما أنه رأى أن ظاهرة الأدباء والنقاد والشعراء من الخلفاء والوزراء في المشرق العربي، تحتاج - كذلك - لمزيد من الدراسات لتُقارب ما كان من دراسات حول الأدب المغربي المتمثل في الأدب الأندلسي، فملاحظ أن الظاهرة واضحة في الأدب الأندلسي بفضل ما قدّم فيه من دراسات، بينما تقل نسبيا في المشرق، ولذلك يوصي الباحث بالبحث العلمي في هذين الجانبين اللذين يمكن أن يستخرج منهما عدد كبير من الموضوعات المفيدة للنقد الأدبي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبراهيم بن علي القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت.
- إبراهيم عوض، التذوق الأدبي، مكتبة الثقافة، ٢٠٠٥م.
- إحسان عباس، دكتور، تاريخ النقد عند العرب، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦.
- التبريزي، أبو زكريا يحي بن علي التبريزي، شرح القصائد العشر، دار الجيل، بيروت.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة ابن سيناء للنشر والتوزيع، القاهرة، ج ٢، ٢٠١٠م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار صادر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م.
- الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق مامون الصاغرجي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٤، ط٢، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ج١، ط١، ٢٠٠١ م.
- الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- السيوطي، الإمام جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار المنهاج للنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣.
- شوقي ضيف، دكتور، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، القاهرة، ط٢٣، ١٩٦٣م.
- شوقي ضيف، دكتور، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط٨.
- ابن طباطبا، محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م

- الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، ج٦.
- طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ط١.
- عبد العزيز عتيق - تاريخ النقد عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٠م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، ج ٣٧، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
- أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين الأصبهاني، الأغاني، مصر، طبعة دار الشعب عن طبعة دار الكتب، (ب- ت)، مج ١١.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ج١٢، ط١، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.
- ماهر شعبان عبد البارئ، أستاذ دكتور، التذوق الأدبي النظرية والتطبيق، مكتبة المتنبي، الدمام، ط ١، ١٤٣ هـ-٢٠١٣م.
- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، ج ١، بدون تاريخ.
- محمد سهيل طقوس، تاريخ الدولة الأموية، ط٧، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٠م.
- محمد صالح الشنطي، أستاذ دكتور، في الأدب العربي القديم (عصوره وتطوره وفنونه ونماذج مدروسة منه)، دار الأندلس للنشر والتوزيع، حائل، ط١١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على

الشعراء، تحقيق حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ١٤١ هـ ١٩٩٥م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ط٣، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
- مصطفى صادق الرافعي – تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ج٣، –ط٦، ١٤٢٢ هـ ٢٠٠١م.
- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الجيل، بيروت، ج١، ط١، ١٤٠٨ هـ – ١٩٩٨م.
- أبوهلال العسكري، الحسن بن عبد الله العسكري، الأوائل، طنطا، ط١، ١٤٠٨هـ.

Sources and References:

Holy Qur'an

- Ibrahim Ibn Ali Alqairoani, Zahr Al Adab Wa Thamar Al Albab, Dar Al-Jeel, Beirut.
- Ibrahim Wad, Literary Appreciation, Althaqfa Library, 2005.
- Ibn Khaldun, Abd al-Rahman Ibn Muhammad ibn Khaldun, The Muqaddimah, Dar Sader, Beirut, 2nd version, 2009.
- Ibn Tabatba, Muhammad Ahmed ibn Tabatba Al-Alawi, Poet Caliber, investigated by Abbas Abdul Sattar, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut, 1st version, 1402 AH-1982 AD.
- Ibn Abd Rabo, Ahmed Ibn Muhammad ibn Abd Rabu, Unique Pendant, Dar Al Kotob Al ilmiyah, Beirut, 1st vol., 1st version.
- Ibn Rashik, Abu Ali al-Hassan Ibn Rashiq, Al-Omda in the Beauties of Poetry, its Literature and Criticism, investigated by Abdel Hamid Hindawi, Modern Library, Beirut, 1 vol., 1st version, 2001 AD.
- Ibn Asaker, Abu al-Qasim Ali ibn Al Hassan ibn Hebat Allah ibn Asaker, History of Damascus, investigated by Amro ibn Gharama Al-Amrawi, 37 vol., 1415 AH - 1995 AD.
- Ibn Qutaiba, Abu Muhammad Abdullah ibn Abdul Majeed ibn Muslim ibn Qutaiba, Poetry and Poets, Dar Al-Hadith, Cairo, 1423 AH.
- Abu Al-Faraj al-Asbhani, Ali Ibn Al-Husayn Al-Asbhani, A Collection of Songs, Egypt, Dar Al-Sha`b Edition, Edition of Dar Al-Kutub, (B-T), 11 vol.
- Ibn Katheer, Abu Al-Fida'a Ismail ibn Omar ibn Kathir, From the Beginning to the End, investigated of Abdullah ibn Abdul Mohsen Al-Turki, Dar Hajar, 12th Vol., 1st version, 1417 AH-1997 AD.
- Abu Hilal Al-Askari, Al-Hassan Ibn Abdullah Al-Askari, A collection of proverbs Jamharat, Investigated by Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim and Abdul Majeed Qatamesh, Dar Al-Jeel, Beirut, 1st Vol., 1st version, 1408 AH - 1998 AD.
- Abu Hilal Al-Askari, Al-Hassan Ibn Abdullah Al-Askari, The Differences, Tanta, 1st version, 1408 AH.
- Dr: Ehsan Abbas, History of Arab Criticism, Beirut, 5th version, 1406 AH-1986AD.

- Al-Tabrizi, Abu Zakaria Yahya ibn Ali Al-Tabrizi, Explanation of the Ten Poems, Dar Al-Jeel, Beirut.
- Al-Jahiz, Abu Othman Amr ibn Bahr Al-Jahiz, Al-Bayan wa Al-Tabyin, Ibn Sina Library for Publishing and Distribution, Cairo, 2nd vol., 2010 AD.
- Al- Dhahabi, Imam Shams Al-Din Muhammad ibn Ahmed ibn Othman Al-Dhahabi, Siyar A 'lam Al-Nubala', investigated by Mamoun Al-Sagherji, Al-Risala Foundation, Beirut, 4th Vol., I 2nd version, 1402 AH, 1982AD.
- Al-Zuzni, Abu Abdullah Al-Hussein Ibn Ahmed Al-Zuzni, Explanation of the Seven Penda, investigated by Muhammad Mohiuddin Abdul Hamid, Dar Al-Talei for Publishing and Distribution, Cairo, 2009 AD.
- Al-Suyuti, Imam Jalaluddin ibn Abdul Rahman Al-Suyuti, History of the Caliphs (Tarikh al-Khalifa') [Al-ImâmJalâl al-Dîn al-Suyûtî], Dar Al-Minhaj for Publishing and Distribution, Beirut, 2nd version, 1434 AH, 2013.
- Dr. Shawqi Deif, Doctor, History of Arabic literature (Islamic era), Dar Al-Maarif, Cairo, 23rd version, 1963 AD.
- Dr. Shawky Deif, In Literature Criticism, Dar Al-Maaref, Cairo, 8th version.
- Al-Tabari, Imam Abu Ja`far Muhammad ibn Jarir al-Tabari, History of al-Tabari, investigated by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Dar Suwaidan, Beirut, 6th vol.
- Taha Ahmed Ibrahim, The History of Criticism in Arabic Literature from the Pre-Islamic Era to the Fourth Century AH, Dar Al-Kutub Al-Alami, Beirut, 3rd version, 2008 AD.
- Abdel Aziz Atiq - History of Criticism in Arabic Literature, Dar Alnahda Alarabia, Beirut, 2010.
- Ali Muhammad Muhammad al-Salabi, The Succession of Abdul-Malik Ibn Marwan and his Role in the Islamic Conquests, The Modern Library, Beirut, 1st version, 2010 AD- 1431 AH.
- Prof. Maher Shaaban Abdel-Bari, Literary Appreciation Theory & Applying, Al-Mutanabi Library, Dammam, 1st version, 143 AH-2013AD.
- Al-Mubarrad, Abu al-Abbas Muhammad ibn Yazid Al-Mubarrad, A Comprehensive in Language and Literature, Knowledge Foundation, Beirut, 1st vol., without history.
- Muhammad Suhail Taqus, the History of the Umayyad Dynasty, Dar Al-Nafees, 7th version, 1438 AH, 2010 AD.

- Prof. Muhammad Salih Al-Shanti, Old Arabic Literature (eras, development, arts, and varied models), Dar Al-Andalus for Publishing and Distribution, Hail, version 1413 AH - 1992 AD.
- Marzabani, Abu Abdullah Muhammad ibn Imran ibn Musa Al-Marzabani, Al-Muwashah in the Defects of Scholars on Poets, investigated by Hussein Shams Al-Din, Dar Al-Kutub Al-Alam, 141 AH - 1995 AD.
- Al-Masoudi, Abu Al-Hassan Ali ibn Al-Hussein Ibn Ali Al-Masoudi, Meadows of Gold and Mines of Gems (Murūjad-Dahabwa-Ma'ādin Al-Jawhar), Dar Al Kotob Al ilmiyah, Beirut, 3rd vol., 3rd version, 1433 AH - 2012 AD.
- Mustafa Sadiq Al-Rafei - History of Arab Literature, Dar AlKitab Al Arabi, Beirut, 3rd vol., 6th version, 1422 AH - 2001 AD.